أبو حنيفة قاهر المتجبرين

لا أعلم ماذا دهى هؤلاء الشيوخ المخرفين، كيف يقرؤون عن جهاد الأئمة الكبار؟ وبماذا يفسرون صلابتهم أمام الطغاة عبر تاريخنا العريق؟ لا أعلم كيف لأولئك الذي يحدثون الناس ليل نهار بمسائل أبي حنيفة، وفتوى أبي حنيفة في الغسل والطهارة والوضوء، أن يغفلوا عن صلابة الرجل في وجه الحكام الظالمين والطغاة الكبار.!

لقد ثار الإمام العظيم على الظلم في عهدي الأمويين والعباسيين.. لقد تأزمت الحياة وماجت الفتن الكبيرة في عهد الأمويين، الذين كانوا يواجهونها بكل قسوة وعنف، فيريقون الدماء، ويزهقون الأرواح.. لقد كان أبو حنيفة وأمثاله من قادة الأمة الأبطال، من يواجهون كل ظلم يرونه أمامهم بلا هوادة أو تراجع، حتى وإن تيقن له أنه يدق أبواب الشهادة بموقفه واختياره واستبساله وصلابته.! لقد كان ﷺ يدرك أن صدامه مع الباطل حتمي في يوم من الأيام، وتسير هذه الأيام لتكشف عن حقيقة الرجل ومعدنه النفيس.. فليس هو ذلك العالم الضعيف، الذي يُرهبه سيف الحاكم وسوط الجلاد عن قول الحق والصدح به، وليس هو ذلك العالم المنافق المداهن، الذي يبيع دينه بدنياه، فيتزلف للحكام راجيًا عطاءهم ودنياهم الفانية، ليصير أبو حنيفة بثباته، إمام الفقه وإمام السياسة، وليرد هذه التصورات الخاطئة في عقول الناس، ويردع كل أفاك يردد: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة.

لقد عرف أبو حنيفة منذ حداثته، أن طريق العزة يفرض عليه أن يكون موفور العيش، حتى يصير موفور الكبرياء والكرامة، وحتى لا يدفعه الفقر أن يكون ذليلا لسلطان يُرغمه على التفريط في مبادئه و دينه، فامتهن التجارة، وصار ميسور الحال، عزيز النفس قوي الرأي.!

وفي ظل هذا الاضطراب، سعى الأمويون بتفكيرهم الشيطاني إلى الفقهاء والعلماء، يطلبون تأييدهم ليكونوا سندًا لهم في مواجهة الناس، وتبرير ما يقدمون عليه ويرتكبونه من قرارات ومظالم أرّقوا بها حياة الرعية، فجاء رسول من الطاغية يزيد بن هبيرة والي العراق، يدعو أبا حنيفة أن يتولى القضاء.. وتحت سياط الخوف وسطوة السيف، استجاب كثير من الفقهاء لهذه الفتنة المحدقة، ولبوا طلب الحاكم الطاغية.. لكن أبا حنيفة لم يكن كهؤلاء، وإنما كان نموذجًا فريدًا للعالم الحر، صاحب الرأي الجريء، والتمسك بالحق، ولو كلفه ذلك حياته ومستقبله، وليس هو صاحب النفس التي ترضى بالهوان وتقبل الدنية في دينها، فإذا به يعلن رفضه لطلب الوالي وعلى الملأ، وهو يقول لمن حوله: (لو أرادني أن أَعُدَ له أبواب مسجد واسط، لم أدخل في ذلك، فكيف وهو يريد مني أن يكتب بضرب عنق رجل وأختم أنا على ذلك الكتاب.؟! فو الله لا أدخل في ذلك أبدًا)

ولله دره.. فأين ما فعله أبو حنيفة من علماء سوء حرضوا على قتل الأبرياء وذبح النساء والأطفال والعزل.. وتسببوا في تفريق الوطن، وجعلوا الأخ يقتل أخيه وأحدثوا فتنة أضرت بالبلاد والعباد.!

أما رفض أبو حنيفة، فلم يكن يمر مرور الكرام، أو يتغاضى عنه الطاغي المتجبر، الذي ما لبث أن أصدر أمره بتعيينه قاضيًا للقضاة في الكوفة، و أقسم إذا رفض ليعاقبه ويجلدنه، فقال أبو حنيفة: (ضربة لي في الدنيا، أسهل علي من مقامع الحديد في الآخرة، والله لا فعلت ولو قتلني)، وبالفعل جلده ابن هبيرة ثلاثين جلدة، و أبو حنيفة متمسك برفضه، مصمم على إبائه، وأخيرًا قالوا له: إن أبا حنيفة سيموت، فقال: (ألا ناصح لهذا المحبوس أن يستأجلني فأوجله فينظر في أمره) فلما بلغ ذلك أبو حنيفة قال: (دعوني أستشير إخواني و أنظر في ذلك) فلما بلغ ذلك ابن هبيرة أطلقه،

فغادر الكوفة إلى مكة حيث لم يرجع منها إلى أن زال ملك بني أمية)[1] ويزول ملك بني أمية، ويزول ابن هبيرة، وتصفوا الدنيا من جورهم وظلمهم، ويأتي بنو العباس الذين خُدع الناس فيهم لقرابتهم من رسول الله ﷺ، وظنوا أن هؤلاء الأشراف بعهدِهِمُ الجديد، سوف يرفعون عن الناس ما ذاقوه من ويلات وآلام على يد الأمويين، ولكنهم فوجئوا بنفس التسلط والجبروت والظلم والاضطهاد والإرهاب والقتل والقمع والبغي في الارض.! كل هذا من أجل العروش الزائلة، وفي سبيل الحكم الفاني، الذي جلب للناس كثيرًا من الشرور والمهالك.. ولم يكن لهذا الشامخ الذي صمد أمام طغاة الأمس، أن يلين أو يضعف أمام طغاة اليوم.!

أدرك أبو حنيفة أن حكم العباسيين، ما هو إلا صورة مثلى لحكم الأمويين، إن لم يكن أبشع و أفظع، في ظلمه وجوره وسفكه للدماء والأرواح فها هو الخليفة المنصور، يلح عليه أن يتولى القضاء في باكورة العهد العباسي، وكان يعلم تأييد أبا حنيفة للنفس الذكية وأخاه إبراهيم، ويساعدهما في الخروج على بني العباس.. ولم يكن من اليسير على المنصور أن يقتل إمامًا مثل أبي حنيفة، له قدره ومكانته في قلوب الناس، ولأنه يعلم سلفًا معنى قتل الأئمة في قلوب المسلمين، فها هو الحسين مازال جرحة أليم في قلب كل مسلم، بل لعل دمه هو اللعنة التي أصابت عرش الأمويين ومزقته كل ممزق.. ومن ثم حاول احتواءه بالمال والمنصب والجاه، فعرض عليه القضاء مرات متتالية، لكن الإمام يتجاهل طلبه ويتهرب منه، و يُصر المنصور ويقابله إصرار الإمام بالرفض والاعراض، ويستدعيه أمامه ويحلف عليه أن يتولى القضاء، ويحلف أبو حنيفة في وجهه أنه لا يفعل، فيقول له أحد الوزراء: ألا ترى أمير المؤمنين يحلف؟ فيقول الإمام: أمير المؤمنين أقدر على

---

[1] - المكي ج١ ص ٢١- ٢٤، ابن خلكان ج٥ ص ٤١، ابن عبد البر، الانتقاء ص ١٧١.

كفارة يمينه مني، وهنا يستشيط غضب المنصور ويأمر به ليسجن، وبعد أيام يستدعيه ويقول له: أما زلت ترغب عما نحن فيه؟ فأجاب: أصلح الله أمير المؤمنين، إني لا أصلح للقضاء، فيرد المنصور صائحًا هائجًا: كذبت، فيقول له أبو حنيفة: وكيف تريد أن يتولى أمر القضاء إنسان كاذب؟!

و أنت هنا أيها القارئ المتأمل، تقف أمام أعجب مو اقف التاريخ، والتي بقوتها وندرتها وسموها، تبصق اليوم على علماء دنيئين حقيرين، ما أن يشير إليهم الحاكم بحذائه حتى يهيمون على وجوههم، يقبلونه ويلمعون واجهته بخدودهم، وبقدر ما يسيل لعابهم لإغرائه، بقدر ما يسيل عدوانهم على الحق، وطمسهم لمعالمه، رغبة في الدنيا ومتعتها الفانية.!

ويزداد غضب المنصور، فيأمر به فيضرب بالسياط عساه يتراجع ويلين عن طريق عناده، ولم يراع فيه علمًا أو سنًا أو مقامًا أو قربًا من الله، وصار الجلاد يجلده حتى بلغ (١٣٠) سوطًا.. وهنا يصيح عم الخليفة ويقول للمنصور: لقد سللت على نفسك مائة ألف سيف.. هذا فقيه المشرق يضرب بالسياط في غير جرم دون أن تخشى انتقام السماء؟! فتراجع الطاغية وأمر بإطلاق سراحه، وسرعان ما بلغه وفاة الإمام متأثرا بجراحة.!

ويرحل الامام الأعظم بطلاً قويًا صامدًا ثائرًا ناصرًا للحق رافضًا للظلم.. لم يقهره المنصور بسياطه.. بل هو الذي قهر المنصور بجَلده وثباته.. وهكذا العلماء الأحرار، تثور نفوسهم على الإفك، وترفض الزيف، ولا تستسلم له أو تقبله.

وفي موقف أبي حنيفة من الثورات في عهده نجد عجبًا، يقول الدكتور الشكعة رحمه الله في مؤلفه القيم الباهر (الأئمة الأربعة): "لم يكن أبو حنيفة بمعزل عن الأحداث السياسية في عصر ه، و إنما كان يتابعها ويسهم في صنعها بالرأي والفتيا والمال، وكان متعاطفًا مع آل البيت فانتصر للإمام زيد

إبان ثورته على بني أمية، ولما قدم العباسيون؛ رحب بهم أول الأمر ،فلما تنكبوا الطريق السوي ناهضهم، ووقف في صف محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم حين قاما بثورتهما على العباسيين، ولما فشلت الثورة لم يُبد الإمام ندمًا على مشاركته فيها وإسهامه في تمويلها، وكان هذا من أسباب الجفوة بينه وبين المنصور .. وكان أبو حنيفة يرى السيف أداة لمناصرة الحق، ووسيلة لإزاحة الباطل وسبيلاً للقضاء على الحاكم المنحرف، ولم يأس أبو حنيفة من مناصبة المنصور العداء، ومناصرة إبراهيم بن عبد الله وكان خروجه بالكوفة، وكان دائم التأييد له، كثير الحديث عنه في حلقته ومجالسه، معلنا رأيه مجاهرًا به مجاهرة شديدة، مما جعل تلميذه زفر بن الهذيل يقول له: والله ما أنت بمنته حتى توضع الحبال في أعناقنا.! وينسب إلى زفر قوله: إنه لم يلبث أن جاء كتاب المنصور إلى عيسى بن موسى أن احمل أبا حنيفة، فحمله إلى بغداد فعاش خمسة عشر يومًا ثم سقاه السم فمات.

وسواء صح خبر السم أم لم يصح، فإن أبا حنيفة كان شديد المناصرة لأهل البيت من بنى الحسن، مسهما فى ثورتهم ضد المنصور، مشجعًا الناس على الانضواء تحت لوائها، وخوض غمار الحرب انتصارًا لها، لقد مات أبو حنيفة وهو في جلال الشيخوخة وقمة الجهاد، من أجل إيجاد الحاكم الصالح، والحليفة العادل، وتهيئة حياة الأمن للمسلمين، وتجنيبهم ظلم السلطان واستبداد "[١]

١ – الأئمة الأربعة . د– مصطفى الشكعة